الموت انهياراً اقتصادياً

حين يتعرض أى مجتمع لحالات القهر فإن الموت يسكن كل مفرداته خصوصًا على المستوى الاقتصادى باعتباره عصب الحياة، وتخلو الحياة من مضمونها فى ظل الفقر والجوع والأحوال المعيشية المتردية، والشعر فى كل زمان ومكان وثيقة إنسانية تكشف عرى المجتمعات ومواضع التردى والانهيار، والشعراء هم أكثر الناس تطلعًا إلى عالم أكثر إشراقًا يتجاوز الواقع المعيش. وأوطان شعرائنا الثلاثة مرت بمنعطفات اقتصادية خطيرة، فاتسم واقعهم الاقتصادى بالانهيار، فالسياب وأمل دنقل قد تعرضا لحالات الجوع والفقر، ومرَّ كل منهما بضائقات مالية طاحنة أفقدتهما الشعور الطبيعى بسعادة الحياة، أما محمود درويش فقد عانى - ولا يزال - من التآمر بكل أنواعه: النفى والنشر والقهر والسلب والضياع.

يأتى السياب فى مقدمة شعرائنا من حيث تجسيد البعد الاقتصادى فى شعره، أو كشف ملامح الفقر والجوع المضروب على عراقه، فالعقم والموت يسكن كل شىء حتى الشوارع والمزارع يعشش فيها:

أهذا انتظار السنين الطويلة
الموت فى الشوارع
العقم فى المزارع.

يرفض السياب الواقع المتحقق، فلا يراه مناسبًا بعد الانتظار الطويل، لذا يستخدم بنية الاستفهام التى توحى بالحيرة والتردد والشك بل تسير إلى النفى خصوصًا أنه يجسد معطيات هذا الواقع التدميرى الذى يشكل أفقه الانهيار الاقتصادى، ولذا «عادت الغلبة للموت على الحياة؛ لغياب الشاعر عن حضوره، وهكذا تهدم التوازن بين النقائض: الحياة والموت، الحضور والغياب، الحب والنضرة، سخاء البذل وأحجام البخل النسبى والطلق. وكان تهدم التوازن هذا بداية الانهيار الجديد والأكثر خطورة فى حياة السياب الذى عانى فيه ببطء من ذلك الموت المعنوى الطويل.. والذى مهّد لموته الجسدى ورافقه حتى النزع الأخير»[٧١].

ويعد ديوان «أنشودة المطر» وثيقة تكشف الانهيار الاقتصادى والتردى وواقع العراق العظيم والموت الذى ينشر ظلاله على الحقول فلا تثمر إلا جوعًا وعريًا وضياعًا، وإن المدنية ليست إلا موتًا يمارس سطوته على أفق الحياة وتبقى جيكور قريته بين الوجود والعدم فى ظل التردى والانهيار الذى يمتد على أفق العراق:

وتلتف حولى دروب المدينة:
حبالا من الطين يمضغن قلبى
ويعطينى، عن جمرة فيه، طينة،
حبالا من النار يجلدن بمرض الحقول المزينة
ويحرقن جيكور فى قاع روحى
ويزرع فيها رماد الضغينة.

وقد شكلت معطيات الواقع الاقتصادى رؤى السياب، فلم ير إلا موتًا يحيط بكل شىء منذ طفولته، فقد كانت بيئة الطفل يحفها الموت من كل جانب، فهل كانت حياة الجنوب العراقى آنذاك إلا موتًا كئيبًا تنطق به مظاهر البؤس والمرض والشقاء وتدور فيه هياكل البشر المتعبين حول رحى الإقطاع البغيض تمتص قواهم وتحيلهم أشباحًا تنخر فيها الجهالة والجوع والمرض[٧٢].

أتعلمن اى حزن يبعث المطر؟
كيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع،
كالحب، كالأطفال، كالموتى - هو المطر![٧٣].

ويسحق الفقر والجوع الحياة فى العراق، وينتشر الضياع، وتتكاثف رؤى الإحباط لدى السياب فى ظل التدهور الاقتصادى، ويصبح انتظار المطر انتظارًا سلبيًا لا يحقق فاعلية تسهم فى إعادة الحياة، بل إن العراق وقع فريسة للجدب فامتلأ الشاعر حزنًا لهذا الواقع المعتم:

مطر...
مطر...
مطر...
وفى العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوأن والحجر
رحى تدور فى الحقول... حولها بشر
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع
ثم اعتللنا - خوف أن نلام - بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أن كنا صغاراً، كانت السماء
تغيم فى الشتاء
ويهطل المطر/
وكل عام - حين يعشب - نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع[٧٤].

تتفاقم الأزمة الاقتصادية، وتقوم البنى الدالة بفضح الواقع العراقى، فالجوع يسيطر على الزمن (كل عام). وتأتى الثنائية المضادة لتأكد الموات والانهيار (حين يعشب الثرى - نجوع).

«ولا ينسى الشاعر أن يحشد فى قصائده كل المبررات التى تدفع الفرد المأزوم تحت سياط الجوع والحرمان إلى أن يواجه العالم أجمع بالحقد والسخط الذى يستدعى شعورًا حادًا بفردية المأساة رغم وضوح أسبابها الاجتماعية»[٧٥].

وتتجلى هذه النبرة الساخطة فى قصيدة «المخبر» حيث الذات ترفض الآخر، وتتقوقع، تحس بالانهيار الذى يلاحق كل شىء، فلا شىء إلا قانونها الخاص، ورؤيتها للعالم تتجسد من خلال الفقد والإحساس بالضياع والفقر:

سحقاً لهذا الكون أجمع وليحل به الدمار!
مالى وما للناس؟ لست أبًا لكل الجائعين
وأريد أن أروى وأشبع من طوىً كالآخرين(٧٦).

أما الوهم والحلم الذى لا يتحقق فإن السياب لا ينشغل به، لأنه لا يستطيع أن يعبر مأساة الواقع، وبين الفقر والجوع ويملأ بطون الجوعى، وتبقى ذات السياب قلقة متوترة، لا تنسجم مع الآخر الذى يستسلم للانتظار السلبى:

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث فى الفلاة
روح النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين
فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من يجوع(٧٧).

ولهذا تتخذ الذات قرارها فى ظل التردى والانهيار والموات الذى يخيم على الواقع، فيصبح الواقع أشبه بالموت، بل إن الموت لدى السياب أهون وأيسر، فهى تعيش فى ظل المصير السيئ:

إنى سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع
لا شىء غير الرعب والقلق الممض على المصير

ساء المصيرا
رباه إن الموت أهون من ترقبه المرير[٧٨].

لقد عاش السياب مرحلة مأزومة اتجه فيها إلى البرجوازية الصغيرة «فى مرحلة تأريخية عصيبة تنتمى فيها للتغيير وتخشى من ممارسته وتنوء بأثقال واقع مزر متفسخ وامتدادات أجيال من الظلم والقهر والطغيان التى رسخت فى العقول عقدًا وشكوى وآلامًا وانغلاقًا مريضًا ويطغى فيها الإحساس بأن مأساة الإنسان فى أساسها فردية، وإنه رغم اندماجه المطلق الأعمى بالجماعة فى شعائرها وقيمها وطقوسها يستشعر فى قلب ذلك الاندماج أنه إن جاع أو مرض أو نكب فإنه هو وحده الذى يستعمل هذه المأساة ولا أحد سيدفعها عنه»[٧٩].

ويمتد أفق الموت فى شعر محمود درويش، وتتبلور ملامحه بوصفه انهيارًا اقتصاديًا لا سيما أن وطنًا مسلوبًا وأرضًا مغتصبة لا بد أن تثمر عقمًا وانهيارًا وموتًا، لأن الموت يمارس بكل ألوانه. هذه الرؤى المتداخلة بين رحيل الوطن وغيابه وبين الانهيارات خصوصًا الاقتصادية تتراءى فى قصيدة: «نسير إلى بلد»، حيث يقدم محمود درويش معطيات انهيارية فى هذه القصيدة القصيرة، التى نضطر إلى كتابتها كاملة حتى تتضح ملامح الانهيار والموت:

نسير إلى بلد ليس من لحمنا. ليس من عظمنا شجر الكستنا
وليست حجارته ماعزًا فى نشيد الجبال. وليست عيون
الحصى سوسنا
نسير إلى بلد لا يعلق شمسًا خصوصية فوقنا

تصفق من أجلنا سيدات الأساطير: بحر علينا وبحر لنا
إذا انقطع القمح والماء عنكم، كلوا حبنا واشربوا دمعنا
مناديل سوداء للشعراء. وصف تماثيل من مرمر سوف ترفع
أصواتنا
وجرف ليحمى أرواحنا من غبار الزمان وورد علينا، وورد لنا
لكم مجدكم ولنا مجدنا. آه من بلد لا نرى منه إلا الذى لا
يرى: سرُنا
لنا المجد: عرش على أرجل قطعتها الدروب التى أوصلتنا إلى
كل بيت
سوى بيتنا!
على الروح أن تجد الروح فى روحها أو تموت هنا...[٨٠].

يلحظ القارئ أن عنوان القصيدة - من خلال بنيته - يفتح أفقًا من الدلالات واحتمالات التأويل، فالشاعر لجأ إلى التنكير لكلمة (بلد) فى عنوانه (نسير إلى بلد) ليقدم معطيات الموت التى تحيط بهذا البلد المنكوب الذى يعانى من الضياع وفقدان الهوية لدرجة أنه أصبح نكرة على مستوى بنيته ووجوده - ولا يستطيع أن يتمتع بخصوصية، يمنح أبناءه الأمن والاستقرار، لكنه مسكون بالموت: الانهيار الاقتصادى والفقر والجوع والحزن والانكسار: (إذا انقطع القمح عنكم كلوا حبنا واشربوا دمعنا).

وفى ظل حركة الشاعر الدائبة والبحث عن معطيات تمنحه الحياة، يصل إلى موت جديد وغربة دائمة يمارسها كل يوم: (عرش على أرجل قطعتها الدروب التى أوصلتنا إلى كل بيت سوى بيتنا!).

ولعل علامة التعجب التى وضعها الشاعر نهاية السطر السابق تشير إلى الألم والدهشة والحسرة والتعجب من واقع يحافظ على الفقد والضياع.

ويتجلى الموت فى خطاب أمل دنقل بوصفه انهيارًا اقتصاديًا، فيمارس سطوته على مفردات الواقع، فيبدو جافًا ذابلا وعقيمًا، والحياة الاقتصادية مرتبطة بالحياة السياسية، فهى نتيجة لها، فكلما اتسم الواقع السياسى بالفاعلية والعدالة والحق اتسم الواقع الاقتصادى بالرخاء والخير والحياة الكريمة بعيدًا عن المذلة والهوان، وعندما يسود القهر والظلم والقسوة لا يثمر الواقع إلا موتًا وعطنًا. يتراءى الموت/الانهيار الاقتصادى فى قصيدته «كلمات سبارتكوس الأخيرة» حين يصرح أمل دنقل:

فربما يأتى الربيع
«والعام عام جوع»
فلن تشم فى الفروع.. نكهة الثمر!
وربما يمر فى بلادنا الصيف الخطر
فتقطع الصحراء. باحثًا عن الظلال
فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير
والرمال
والظمأ النارى فى الضلوع!
يا سيد الشواهد البيضاء فى الدجى..
يا قيصر الصقيع![٨١].

زمن الانهيار يتبدى فى مطلع الدفقة حيث يعلن الشاعر شكه فى قدوم موسم الولادة/الربيع، مستخدمًا أداة شك فى قدومه (فربما يأتى)، ثم يستخدم تقنية الاستدعاء عن طريق النص لعالم بدر شاكر السياب (والعام عام جوع؟) ليمزج مكانين يعانيان من الفقر والجوع والموت: العراق ومصر، فكما عانى العراق - فى فترة الستينيات - من ويلات الجوع والتشرد والضياع فى ربوعه حين انتشرت فيه المجاعة والانهيار الاقتصادى عانت مصر من الظروف نفسها: الفقر والجوع إنه الموت يغرس نابه فى بطون الجوعى، فى ظل القهر السياسى الذى يعانيه الوطن فى رحاب الطاغية/قيصر.

وتأتى تراكيب الانهيار الاقتصادى دالة فى موضعها حيث يسود السلب عالم الواقع الذى يمتد إلى المستقبل: (فلن نشم فى الفروع.. نكهة الثمر)، ثم تأتى تقنية التكرار لتؤكد موضع الموت/الجدب والفقر الذى يغطى أفق الواقع المتردى: (فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير والرمال) حتى الماء يعانى الشعب من فقده، وهو أهم عناصر الحياة، ولكن الشاعر أضاف إلى الماء المفقود الظمأ صفة (النارى) ليشير إلى حرقة الظمأ والمعاناة التى تفتك بالأحياء الموتى.

وفى قصيدة «العشاء الأخير» يجتاح الموت واقع الشاعر، ويمارس سطوته وقهره حتى إن الذات الطامحة تقع فريسة بين ضدين: رغبة الصعود والخوف من السقوط، حيث يتنازعها هذان النقيضان، فى الوقت الذى فقد فيه (القدرة على الحياة) وانتشرت كل عوامل الانهيار، فأصبح يعانى من ألم الجوع، فلم يعد لديه ما يعينه على الحياة وينقذه من هلاك الموت المحقق:

أعطنى القدرة حتى أبتسم
فشعاع الشمس يهوى كخيوط العنكبوت والقناديل تموت
قدمى تلتمس السلمة الأولى لكى أصعد فوقًا
ويدى تلتمس الحاجز إذ أخشى السقوط
كيف أبقى؟
عفن الموتى، وأطياب الحنوط
نكهة تكسو فناء البيوت، تسرى فى دمى
عرقًا مغرقًا[٨٢].

ثم يحول الانهيار العام إلى انهيار الذات التى تعانى من الفقد والجدب والموت، وهى تحاول فى الوقت نفسه أن تحدد رؤيتها للعالم من منظور فقدها ولهذا تطرح تساؤلا يحدد سياق علاقتها بالعالم، فهى لا ترغب فى الانفصال، بل تتأمل فى صيغة جديدة تحقق لها الاتصال والامتزاج:

جائع يا قلبى المعروض فى سوق الرياء
جائع.. حتى العياء
ما الذى آكله إذن..
كى لا أموت؟[٨٣].

البناء النحوى دال، حيث يسيطر الشاعر على القارئ حين يجعله فى منطقة التركيز فبدأ المقطع بـ «جائع» مع حذف المسند إليه (أنت) لينصب اهتمامه على الفقد والانهيار السائد لا الجوع،

ثم لجأ إلى تقنية التكرار للمفردة نفسها (جائع) حتى يشف مرارة الحرمان والمعاناة فى ظل الواقع المتردى.

ويتماهى الانهيار السياسى مع الانهيار الاقتصادى فى قصيدة (الأرض والجرح الذى لا ينفتح) فيقدم أمل رثائية للواقع خصوصًا وأن حال الأمة على المستوى السياسى والاقتصادى يرثى له، فكل مفردة من مفردات الواقع تؤكد الموت الذى يزحف على كل شىء، فالقصيدة رؤية للواقع العربى تفيض باليأس والقتامة. وإن كانت «الأرض الخراب» (أليوت رثاء للحضارة الأوربية ووصفًا للجدب الروحى والتدهور الأخلاقى فإن قصيدة: «الأرض والجرح الذى لا ينفتح» هى مرثية لحال الأمة العربية والحياة العربية ليصور هذه العوامل ويتنبأ بنتائجها وتداعياتها الطبيعية»[٨٤].

يكشف أمل هذا الواقع المتردى حين يصرح:

الأرض مازالت بأذنيها دم من قرطها المنزوع،
قهقهة اللصوص تسوق هودجها.. وتتركها بلا زاد
تشد أصابع العطش المميت على الرمال،
تضيع صرختها بحمحمة الخيول.
- الأرض ملقاة على الصحراء ظامئة،
وتلقى الدلو مرات.. وتخرجه بلا ماء!
وتزحف فى لهيب القيظ..
تسأل عن عذوبة نهرها
والنهر سممه المغول
- وعيونها تخبو من الإعياء، تسقى جذور الشوك
تنتظر المصير المر.. يطحنها الذبول[٨٥].

الموت الجبرى والاغتصاب/القهر يبدو من خلال مفردتين دالتين (دم)، و(المنزوع) ومن خلالهما ترقب الذات واقعها وترصد تحولات العالم الدموى الذى يجتاح كل معطيات الواقع. وحركية الموت تمتد للأمام، تمارس فاعليتها التدميرية، ويقوم الزمن بدوره حين يتكئ الشاعر فى بقية القصيدة على الفعل المضارع بوصفه فعلا حركيًا يمتد وتتنامى: تسوق - تترك - تشد - تضيع - تلقى - تخرج - تزحف - تسأل - تخبو - تستقى - تنتظر. وتتضح نتائج الانهيار الاقتصادى والجدب والجفاف فى الانتظار السلبى الذى يؤكد رؤية الذات للعالم من خلال البنية الدالة: (تنتظر المصير المر.. يطعنها الذبول).

ومن ملامح الانهيار الاقتصادى اعترافه بالفقر والجوع الذى تنتسب إليه الذات، وتعانى من نتائجه، ولذا تتمسك بالدعوة للثورة على الواقع المتردى، وتقود التحريض والانقلاب ضد الأغنياء الذين يصوغون وجهًا آخر مغايرًا لواقع الفقراء، يصوغون من عرق الأجراء الفقراء نقود زنا ولآلئ تاج وأقراط عاج. إن أمل دنقل ينحاز إلى الفقراء، لأنه واحد منهم يملك قوت يومه بالكاد، ولهذا «كانت هذه الثورة ترتبط بهدف أصيل وغاية إنسانية عامة هى تحقيق العدالة والحرية وسيادة العقل، فلابد أن تكون الثورة من أجل المأسورين والمقهورين والجياع فى الأرض»[٨٦].

يكشف أمل هذا الواقع المتردى وصراع الطبقات فى قصيدته «سفر التكوين» الإصحاح الرابع»:

إننى أول الفقراء الذين يعيشون مغتربين
يموتون محتسبين لدى العزاء
قلت: فلتكن الأرض لى.. ولهم!
(وأنا بينهم)
حين أخلع عنى ثياب السماء
فأنا أتقدس - فى صرخة الجوع - فوق الفراش الخشن![٨٧].

وفى القصيدة نفسها يواصل أمل صرخة الذات فى ظل التدهور والتردى الذى يعانيه الواقع، لترى الحصار يفرض نفسه، ويمارس قسوته عليها، فلا يتراءى لها إلا الموت والانهيار، فتتوحد بآليات الموت، تعانى الغياب:

حدقت فى الصخر، وفى الينبوع
رأيت وجهى فى سمات الجوع!
حدقت فى جبينى المقلوب
رأيتنى: الصليب والمصلوب
صرخت - كنت خارجًا من رحم الهناءة
صرخت: أطلب البراءة
كينونتى: مشنقتى
وحبلى السرّى:
حبلها
المقطوع![٨٨].

يستخدم الشاعر أفعالا دالة تكشف عمق الرؤية والتحقق من

خلال ممارسة الواقع (حدقت) التى تشير إلى التأمل والانشغال معتمدًا على تكرارها الذى يؤكد امتلاء الذات، لتكون النتيجة الاكتشاف: (رأيتنى). ويأتى الموقف الذى يعتمد على الاحتجاج والرفض من خلال بنية الفعل (صرخت) التى يعتمد الشاعر فى إعلانها على التكرار لتكون وسيلته الوحيدة بوصفه قائدًا تنويريًا يملك الصراخ/الكلمة فى مواجهة الواقع.